بنته الصغيرة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

فرغ أبو يحيى مالكُ بنُ دينار ، زاهدُ البَصرة وعالمها ، من كتابة المُصْحَف ؛ وكان يكتبُ المصاحف للناس ويعيشُ مما يأخذ من أجرة كتابته ، تعفُّفاً أن يَطْعَم إلا من كَسْب يده ، ثم خرج من داره وَجْهُهُ المسجدُ ، فأتاه فصلّى بالناس صلاةَ العصر ، وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فركع وسجد ما شاء اللهُ حتى قضى نافِلَتَه ، ثم انْفَتَلَ من صلاته فقام إلى أُسْطُوانته[1] التي يستند إليها ، وتَحَلَّقَ الناسُ حوله جموعاً خلْف جموعٍ خلفَ جموع ، يذهب فيهم البصرُ مرةً هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادهم ، حتى تغطّى بهم المسجدُ على رُحْبِه . ومدَّ الامامُ عينه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة ، والناسُ كأن عليهم الطيرَ مما سكنوا لهيبته ، ومما تجبوا لخشوعه ؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندّتْ عيناه ، فما نَظَر إليهم حتى كأنما اطَّلَع على أرواحهم فجرٌ رطْبٌ من سِحْر ذلك الندى

وبَدَرَ شابٌّ حدَثٌ فسأله : ما بكاءُ الشيخ ؟ وكان قريباً يجلس من الامام في سَمْت بصره ، فتأمّله الشيخ طويلاً يقلّب فيه الطرْفَ كالمتعجب ، ولَبِثَ لا يجيبه كأنما عَقِدَ لسانُه أو أخذته عن نفسه حالٌ ، فما يُثْبِتُ شيئاً مما يرى

وازداد الناس عجباً ؛ فما جرّبوا على الشيخ من قبلها حَصَراً ولا عِيًّا ، ولا قطَعَه سؤالٌ قطّ ، ولا تخلّف قطُّ عن جواب ؛ وقالوا إن له لشأناً وما بُدٌّ أن تكون من وراء حُبْسَتِه شِمابٌ في نفسه تَهْدِر يسَيْلها وتعتلج ، فما أسرعَ ما يلتق السيلُ ، فيجتمعُ ، فيُصوِّبُ إلى مجراه ، فيتَقَاذَف

وتبسّم الامام وقال : أَمَا إني قد ذكرتُ ذكرى فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا فتبسّمتُ لها ؛ أمّا الذكرى ، فهل تعلمون أن هذا المسجد الذي يَفْهَق بهذا الحشْد العظيم ، وتقع فيه

(١) كان العلماء والرواة يجلسون الى اساطين المسجد ، وهي أعمدته ، كما كان بالأزهر الى عهد قريب .

المدينة لكل أذانٍ وتطير — هل تعلمون أنه خلا قطّ من الناس وقد وَجَبَت الفريضة ؟ قالوا : ما نَعْلمه . قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خلَتْ ، في موت الحسن[1] ، فقد مات عشيّةَ الخميس ، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتبع أهلُ البصرة كلُّهم جنازته واشتغلوا به ، فلم تُقَم صلاةُ العصر بهذا المسجد ؛ وما تُرِكَتْ منذ كان الاسلامُ إلا يومئذ ؛ ومثل الحسن لا يموت ساعةَ موته من عُمرٍ مَن شهدَها ، فذلك يومٌ عجيب قد لَفَّ نهارُه البصرة كلَّها في كفنٍ أبيض ، فما بقيتْ في نفس رجلٍ ولا امرأةٍ شهوةٌ إلى الدنيا ، وفرغ كلُّ إنسان من باطله كما يَفرغ مَن أيقن أنْ ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ؛ وظهر لهم الموتُ في حقيقة جديدة بالغةِ الرَّوْع لا يراها الأبناءُ في موت آبائهم وأمهاتهم ، ولا الآباءُ والأمهاتُ في موت مَن ولَدوا ، ولا المحبُّ في موت حبيبه ، ولا الحميمُ في موت حميمه ؛ فإن الجميع فقدوا الواحد الذي ليس غيرُه في الجميع ؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكون الموتُ واحداً وتتمدّد فيهم معانيه ، كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعَدَدِ أهل البصرة !

ذلك يومٌ امتدّ فيه الموتُ وكَبِر ، وانكمشتْ فيه الحياةُ وصغرتْ ، وتحاقرَت الدنيا عند أهلها ، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يُلقى فيها الملوكُ والصعاليكُ ، والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك ، لا يَصغر عنها الصغير ، ولا يكبرُ عنها الكبير ؛ لا بل دون ذلك حتى رجعت الدنيا على قدر جيفةِ حيوانٍ بالعراء ، تنكشف للأبصار عن شوهاء نجسةٍ قد أَرَمّت[2] لا تُطاقُ على النظر ولا على الشمّ ولا على اللمس ؛ وما تنفجر إلا عن آفة ، وما تنفجرّ إلا لهوامّ الأرض

تلك هي الذكرى ، وأما الرؤيا فقد طالعتْني نفسي من وجه هذا الفتى فأبصرتُني حين كنتُ مثلَه يافعاً مُترَعْرِعاً داخلاً في عصر شبابي ، فكأنما انتبهتْ عيني من هذه النفس على فاتكٍ

(١) هو الحسن البصرى الامام العظيم وسيأتى وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١١٠ ، وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠

(٢) أرمت : بدأت تعفن وتبلى

خبيث كان فى جناياته فى أغلاله فى سـجنه ؛ ومات طويلاً ثم بُعث !

إنى مُخبركم عنىّ بما لم تُحيطوا به ، فأرْعُوه أسماعكم ، وأحضِروه أفهامكم ، واستجمعوا له ، فانه كان غَيْبَ شيخكم ، وأنا مُحدّثكم به كيلا ييأسَ ضعيف ولا يقنطَ يائس ، فإن رحمة الله قريبٌ من المحسنين

* * *

لقد كنتُ فى صدْر أيامى شُرْطياً ، وكنت فى آنفَة الحَداثة من قبلها أتَفَتّىّ وأتَشطّر ، وكنت قوياً معصوباً فى مثل جِبْلَة الجَبل من غِلَظٍ وشدّة ، وكنت قاسياً كأن فى أضلاعى جندلةً لا قلباً ، فلا أتذمّم ولا أتأثم ؛ وكنت مُدمناً على الخمر ، لأنها روحانيةُ مَن تَعجزُ أن تكون فيه روحانيّة ، وكأنها إلهيّةٌ زوَّرها الشيطانُ — لعنه الله — فيَخْلُق بها للنفس ما تحب مما تكره ، ويُثيبها ثوابَ ساعةٍ ليست فى الزمن بل فى خيال شاربها . وكأن جهلَ العقل نفسَه فى بعض ساعات الحياة هو — فى عِلْم الشيطان وتعليمه — معرفةُ العقل نفسَه فى الحياة !

فبينا أنا ذاتَ يوم أجول فى السوق ، والناسُ يَفورون فى بيعهم وشرائهم ، وأنا أرقُب السارق ، وأرصدَ للجانى ، وأتهيأ للنزاع — إذ رأيتُ اثنين يَتلاحَيان وقد لَبّبَ أحدُهما الآخر ؛ فأخذتُ إليهما ، فسمعت المظلوم يقول للظالم : لقد سلَبْتَنى فَرَحَ بُنَيّاتى ، فسيدْعون الله عليك فلا تصيبُ من بعدها خيراً ، فانى ما خرجت إلا اتباعاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخصّ به الاناثَ دون الذكور — نَظَرَ الله إليه . »

قال الشيخ : وكنت عَزَباً لازوجةَ لى ، ولكن الآدميّةَ انتبهتْ فىّ ، وطمعتُ فى دعوة صالحة من البُنَيّات المسكينات ، إذا أنا فرّحتهن ، ودخلتْنى لهن رقةٌ شديدة ، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضى ، وأضعفتُ له من ذات يدى لأزيدَ فى فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عهدٌ يحاسِبُكَ الله عليه ويستوفيه لى منك ، أن تحملَ بناتك يدعون لى إذا رأيتَ فرَحَهنّ بما تحمل إليهنّ ، وقل لهن : مالك بن دينار

وبتُّ ليلتى أتقلّب مفكّراً فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعانيه الكثيرة ، وحثِّه على إكرام البنات ، وأن مَن أكرمَ بناتِه كرُمَ على الله ، وحرْصِه أن ينشأن كريمات فَرِحات ؛ وحدّثنى هذا الحديثُ ليلتى تلك إلى الصبح ؛ وفكّرت حينئذ فى الزواج ، وعلمت أن الناس لا يزوّجوننى من طيّباتهم مادمتُ من الخبيثين ؛ فلما أصبحتُ غدوت إلى سوق الجوارى ، فاشتريتُ جاريةً نفيسة ، ووقعتْ منى أحسنَ موقع ، وولَدَتْ لى بنتاً فشُغفتُ بها ، وظهرتْ لى فيها الانسانيةُ الكبيرة التى ليست فىّ ، فرأيت بُعْدَ ما بينى وبين صورتى الأولى ؛ ورأيتها سماويةً لاتملك شيئاً وتملك أباها وأمّها ، وليس لها من الدنيا إلا شِبْعُ بطنها وما أيسره ، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تَشبُّ عليه أكثرَ مما تَشبُّ على الرَّضاع ؛ فعلمت من ذلك أن الذى تكتنفه رحمةُ الله ، يملكُ بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره ؛ وأن الذى يجد طهارةَ قلبه يجد سرورَ قلبه ، وتكون نفسه دائماً جديدة على الدنيا ؛ وأن الذى يحيا بالثقة تُحييه الثقة ؛ والذى لايبالى الهمَّ لايبالى الهمُّ به ؛ وأن زينةَ الدنيا ومتاعَها وغرورَها وما تجلب من الهم — كلُّ ذلك من صِغَر العقل فى الأعمال حين يكبر العقل فى العلم !

كانت البُنَيّةُ بدءَ حياةٍ فى بيتى وبدء حياة فى نفسى ، فلما دبت على الأرض ازددتُ لها حباً ، وألِفتْنى وألِفْتُها ، فرُزِقتْ روحى منها أطهرَ صداقة فى صديق ، تتجدّد للقلب كلّ يوم ، بل كل ساعة ، ولا تكون إلا لمحض سرورِ القلب دون مطامعه ، فتُمِدُّه بالحياة نفسِها لا بأشياء الحياة ، فلا تزيد الأشياء فى المحبة ولا تنقص منها ، على خلاف ما يكون فى الأصدقاء بعضهم من بعض واختلافهم على المضرّة والمنفعة

* * *

قال الشيخ : وجَهَدْتُ أن أترك الخمر ، فلم يأت لى ولم أستطعه ؛ إذ كنت منهمكاً على شربها ، ولكن حبَّ ابنتى وضع فى الخمر إثمها الذى وضعته فيها الشريعة ، فكرهتها كُرْهاً شديداً ، وأصبحت كالمكرَه عليها ، ولم تعدْ فيها

تَشْوتُها ولا رِيُّها ؛ وكانت الصغيرةُ في تمزيق أخيلتها أروعَ من الشيطان في تَحوْكِ هذه الأخيلة ، وكأنما جرّتني يدها جراً حتى أبعدتني عن المنزلة الخمرية التي كان الشيطان وضعني فيها ، فانتقلت من الاستهتار والمكابرة وعدمِ المبالاة ، إلى الندم والتحوُّب والتأثم ؛ وكنت من بَعدها كلما وضعْت المسكر وهممت به ، دبت ابنتي إلى مجلسي ؛ فأنظر إليها وتنتشر عليها نفسي من رقة ورحمة ، فأرقب ماتصنع ، فتجيء فتجاذبني الكأس حتى تُهْرِقَها على ثوبي ، وأراني لا أغضب ، إذ كان هذا يسرُّها ويضحكها ، فأُسرّ لها وأضحك

ودام هذا مني ومنها ، فأصبحتُ في المنزلة بين المنزلتين ؛ أشرب مرةً وأترك مِراراً ، وجعلتُ أستقيم على ذلك ، إذ كانت النشوة بابنتي أكبرَ من النشوة بالزجاجة ، وإذ كنتُ كلما رجعتُ الى نفسي وتدبّرت أمري ، أستعيذ بالله أن تعقل ابنتي معنى الخمر يوماً فأكونَ قد نجّستُ أيامها ، ثم أتقدم الى الله وعليَّ ذنوبُها فوق ذنوبي ؛ ويترحم الناسُ على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وُجدتُ في الدنيا مرةً واحدة وهلكتُ مرتين

ومضيتُ على ذلك وأنا أُصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتي ، فلما تمّ لها سنتان ماتت !

* * *

قال الراوي : وسكت الشيخ فعلقتْ به الأبصار ، ووقفت أنفاسُ الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لذكر موت الطفلة ، وخامر المجلسَ مثلُ السكْر بهذه الكأس المذهلة ، ولكن الطفلة دبّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذَبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟ قال الشيخ : فأكمدني الحزنُ عليها ، ووَهَنَ جأشي ، ولم يكن لي من قوة الروح والايمان ما أتأسّى به ، فضاعفَ الجهلُ أحزاني ، وجعلَ مصيبتي مصائب . والايمانُ وحده هو أكبر علوم الحياة ، يُبصِّرُك إن عميتَ في الحادثة ، ويهديك إن ضللْت عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكونُ وإياها على المصيبة ، لاعدُوَّها تكون المصيبةُ وإياها عليك ؛ وإذا أخرجتِ الليالي من الأحزان والهموم عسكرَ ظلامها لقتال نفسٍ أو محاصرتِها فما يدْفع المالُ ولا تردُّ القوةُ ولا يمنع السلطان ، ولا يكون شيء حينئذ أضعفَ من قوّة القويّ ، ولا أضيعَ من حيلةِ المحتال ، ولا أفقرَ من غِنىَ الغنيّ ، ولا أجهلَ من علم العالِم ، ويبقى الجهدُ والحيلةُ والقوّة والعلمُ والغنى والسلطانُ — للايمان وحده ، فهو يكسر الحادث ويقلّل من شأنه ، ويؤيد النفسَ ويضاعفُ من قوّتها ، ويَرُدُّ قدرَ الله الى حكمةِ الله ، فلا يلبثُ ماجاء أن يرجع ، وتعود النفس من الرضى بالقدَرِ والايمان به ؛ كأنما تشهد ما يقع أمامها لاما يقع فيها

قال الشيخ : ورجعتُ بجهلي الى شرٍ مما كنتُ فيه ، وكانت أحزاني أفراحَ الشيطان ؛ وأراد — أخزاه الله — أن يَفْتنَني في أساليب فرحه ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان ، وكانت ليلةَ جمعة ، وكانت كأوّل نور الفجر من أنوار رمضان — سوّل لي الشيطان أن أسكر سكْرةً ما مثلُها ؛ فبتُّ كالميت مما ثملت ، وقذفتني أحلامٌ الى أحلام ، ثم رأيت القيامة والحشر ، وقد ولّدت القبورُ مَن فيها ، وسيقَ الناسُ وأنا معهم وليس وراء ما بي من الكرب غاية ؛ وسمعت خلفي زفيراً كفحيح الأفعى ، فالتفتُّ فاذا بتِنِّينٍ عظيم ما يكون أعظم منه ؛ طويلٌ كالنخلة السحوق ، أسود أزرق ، يُرسل الموت من عينيه الجمراوين كالدم ، وفي فمه مثلُ الرماح من أنيابه ، وبجوْفه حرٌّ شديدٌ لو زفَر به على الأرض ما نبتتْ في الأرض خضراء ، وقد فتح فاه ونفخ جوفَه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمني ، ففررتُ بين يديه هارباً فزعاً ، فاذا أنا بشيخٍ هرم يكاد يموت ضعفاً ، فعُذْتُ به وقلت أجرني وأغثني . فقال : أنا ضعيفٌ كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبّار ، ولكن مرّ وأسرع ، فلعل الله أن يسبِّب لك أسباباً للنجاة . فولّيتُ هارباً وأشرفتُ على النار وهي الهول الأكبر ، فرجعتُ أشتدُّ هرباً والتنين على أثري ؛ ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرتُ به فبكى من الرحمة لي وقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن اهرب الى هذا الجبل ، فلعل الله يحدث أمراً . فنظرتُ فاذا جبل كالدار العظيمة ، له كوًى عليها ستور ، وهو يَبْرُقُ كشعاع الجوهر ؛ فأسرعت اليه والتنين من ورائي ، فلما شارفت

الجبل فتحت الكوى ورفعت الستور ، وأشرفت عليّ وجوه أطفال كالأقمار ، وقرب التنين مني ، وصرت في هواء جوفه وهو يتضرم عليّ ، ولم يبق إلا أن يأخذني ؛ فتصايح الأطفال جميعاً : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشيخ : فاذا ابنتي التي ماتت قد أشرفت عليّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت ، ثم وثبت كرمية السهم ، فجاءت بين يديّ ، ومدت إليّ شمالها فتعلقت بها ، ومدت يمينها إلى التنين فولى هارباً . وأجلستني وأنا كالميت من الخوف والفزع ، وقعدت في حجري كما كانت تصنع في الحياة ، وضربت بيدها إلى لحيتي وقالت : يا أبت « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ »

فبكيت وقلت : يا بنية ، أخبريني عن هذا التنين الذي أراد هلاكي . قالت ذاك عملك السوء الخبيث ، أنت قويته حتى بلغ هذا الهول الهائل ، والأعمال ترجع هنا أجساماً كما رأيت . قلت : فذاك الشيخ الضعيف الذي استجرت به ولم يجرني ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح ، أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن له طاقة أن يغيثك من عملك السيء ، ولو لم أكن لك هنا ، ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن فرّح بناته المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شمال تتعلق بها ، ويمين تطرد عنك

* * *

قال الشيخ : وانتبهت من نومي فزعاً ألمن ما أنا فيه ، ولا أراني أستقر ، كأني طريدة عملي السيء كلما هربت منه هربت به ؛ وأين المهرب من الندم الذي كان نائماً في القلب واستيقظ للقلب ؟

وأملت في رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر ، وقلت في نفسي : إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمر ما ينبغي أن يستهان به ؛ وصححت النية على التوبة ، لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأسمن عظامه ، حتى إذا استجرت به أجارني ولم يقل « أنا ضعيف كما ترى ! »

وسألت فدللت على أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، سيد البقية من التابعين ؛ وقيل لي : إنه جمع كل علم وفن إلى الزهد والورع والعبادة ، وإن لسانه السحر ، وإن شخصه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره إنجيلاً لم ينزل ، وإن أمه كانت مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي ، فترضعه أم سلمة تعلله بثديها فيدر عليه ، فكانت بينه وبين بركة النبوة صلة

وغدوت إلى المسجد والحسن في حلقته يقص ويتكلم ، فجلست حيث انتهى بي المجلس ، وما كان غير بعيد حتى عرتني نفضة كنفضة الحمى ، إذ قرأ الشيخ هذه الآية : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهم لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » فلو لفظتني الأرض من بطنها ، وانشق عني القبر بعد الموت — ما رأيت الدنيا أعجب مما طالعتني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسر الآية ، فصنع بي كلامه ما لو بعث نبي من أجلي خاصة لما صنع أكثر منه

وكلام الحسن غير كلام الناس وغير كلام العلماء ؛ فانه يتكلم من قلبه ومن روحه ، ومن وجهه ولسانه ؛ وناهيكم من رجل خاشع متصدع من خشية الله لم يكن يرى مقبلاً إلا وكأنه أقبل من دفن حميم قد أنزله في قبره بيده ، ولا يرى جالساً إلا وكأنه أسير أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجل كان في الحياة لتتكلم الحياة بلسانه أصدق كلامها

فصاح صائح : يا أبا يحيى ، التفسير التفسير ! وصاح المؤذن : الله أكبر . فقطع الشيخ وقال : التفسير إن شاء الله في المجلس الآتي ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

تاريخ حياة ألف ليلة وليلة

بحث ضاف مفصل في تاريخ هذا الكتاب وتحليله

تجده منشوراً في كتاب

في أصول الأدب

الذي يصدر في هذا الأسبوع